تعليقات لغوية للوحيد الازدي على شرح ديوان المتنبي (نصوص ودراسة)

الدكتور
محسن غياض عجيل
جامعة بغداد ـ كلية الآداب

المقدمة :

أبو طالب : سعد بن محمد ، الازدي ، البغدادي ، المعروف بالوحيد ، الشاعر الاديب ، كان معاصرا للمتنبي وابن جني ، وتوفي سنة ٣٨٥ هـ ، وقد نقل السيوطي قول ابن النجار فيه (كانت بضاعته في الادب قوية ، ومعرفته بالشعر جيدة ، يجمع اللغة والنحو والقوافي والعروض ، متقدما في كل ذلك) (١) .

ولهذا الرجل تعليقات قيمة على شرح ابن جني لديوان المتنبي (الفسر) ، والحديث عن سيرة الرجل وقيمة تعليقاته ودراسة آرائه في صناعة الشعر ونقده ، مما سنعرض له في بحث قادم ان شاء الله ، وانما أردنا هنا أن نقف من تلك التعليقات على بعض آرائه وتصويباته اللغوية ، وهي تدل على سعة علمه بالعربية وكثرة محفوظه منها ، وحسبك برجل يخطيء ابن جني في اللغة ويستدرك عليه ، وقد علمت علو منزلته بين علمائها وأئمتها . كما تدل أيضا على تعصبه للعرب وللعربية ، وشدة غيرته عليها ، وتشدده في صيانتها والحفاظ عليها ،

وتشدده في صيانتها والحفاظ عليها، حتى انه اتهم ابن جني بالسعي لافساد العربية ، وأخذ عليه انه رخصَ لنفسه في امور لا يجب الترخص بها من أمر هذه اللغة، وستجد أمثلة لهذا كله ان شاء الله . وقد عالج الوحيد الازدي في تعليقاته تلك جملة من الامور هي : استعمال الشاذ والنادر ، والقياس على القرآن وكلام العرب ، والسماع ، والتصرف في الكلمات الاعجمية ، ومسألة الاستشهاد بشعر المحدَثين والمولدين ، وتوثيق الشاهد وصحة روايته ، والطبع اللغوي عند القدماء والمحدثين، وألفاظ البدو والحضر ، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ولغة الشعر المحدث ، اضافة الى ما صححه من أوهام في اللغة ، وقع فيها ابن جني والمبرد والاصمعي وغيرهم .

النادر والشاذ :

وقد عابَ على المتنبي ذكره للشاذ والنادر من الالفاظ ، وعابَ على ابن جني محاولة تبرير ذلك والتماس الشواهد له من كتب النوادر ، واتهمه بالسعي لافساد العربية ، ووصمه بالعداء لها (وبالجملة ، فاذا تبين الانسان مذهبه، علم أنه عدو من أعداء العربية ، لانه يجيز القياس على الشواذ للمحدثين) (٢) وانه يخلط الشاذ النادر بالمألوف المعروف ، ثم لا ينبه الى الشاذ ، رغبة منه في الاغراب واظهار العلم بغريب لغة العرب وشواذها (ما أكثر ما يتطلب النادر والشاذ ، فيقرنه بالمشهور المستعمل ، اغرابا على الناس ، وفي ذلك فساد للغة) (٣) .

وهو يرى ان الذين ألفوا كتب النوادر كأبي زيد وأبي عمرو الشيباني واللحياني وأبي مسحل وابن الاعرابي وغيرهم ، انما جمعوا ذلك لينبهوا الى غرابته وشذوذه وندرته ليتحاماه الناس ويتجنبوا استعماله (انما سموها بهذا ليُعلِموا الناس انها غريبة شاذة عن منهاج الكلام الواضح ، فهذا الرجل شديد التعلق بها، يفتش عليها، ويوجه لها وجوهها من الاعراب ، ويعتقد العمل عليها) (٤) .

وواضح انه يريدها عربية واحدة صافية مهذبة من الغريب والنادر والشاذ ، فاذا كان لابد من الاستشهاد بشيء من ذلك ، فينبغي على العالم أن ينص على شذوذها وغرابتها، فلا تختلط الامور على المتعلمين ولا يشجع الناس على استعمالها وتداولها في كلامهم (وآفة اللغة ، أن يورد الانسان الشاذ النادر مع المشهور المتعارف ايرادا واحدا) (٥) .

القيـاس :

وقد شدد الوحيد في مسألة القياس باللغة تشددا كبيرا ، ومنع الترخص للمُحدَثين في شيء منه ، ولم يجعل لهم حق التصرف باللغة ، بل ألزمهم باتباع كلام العرب الزاما صارما، على حرفية ما تصرفوا به ، وبكلمات بعينها لا يجوز لهم تجاوزها، على أي وجه من الوجوه ، كما منع القياس على الشاذ منعا مطلقا ، ورأى ان ترك الحبل على الغارب في هذا ، وفتح الباب على مصراعيه للمحدثين بحجة القياس مفسد للغة ، شديد الخطر على وجودها ونقائها، ومع ما في منع القياس مطلقا من تضييق على الناس في أمر اللغة، الا انه رأى ذلك صيانة لها وسورا لحمايتها . ومن أمثلة هذا ، ان ابن جني ذكر بيت المتنبي :

أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها
مضغ الكلام ولا صبغَ الحواجيبِ

وعقب عليه بقوله : وأراد (الحواجب) فأشبع الكسرة فنشأت بعدها ياء ، وهذا من ضرورات الشعر ، وكان رد الوحيد على هذا قوله (ما زادت العرب في اشباعه ، فحدثت منه ياء أو واو أو ألف ، وأراد رجل استعماله ، فكما استعملوه جاز ذلك لاتباعه اياهم ، وما لم يرد عنهم ، فليس لاحد أن يستعمله قياسا ، لان الشاذ لا يقاس عليه ، وليس لاحد أن يُحدِثه) (٦) .

ومع اعترافه أن حاجة المُحدِث والحضري الى الضرورات أكثر من

حاجة البدو والقدماء الا انه لم يقبل ذلك حجة ، لاعطاء المحدثين حقا مساويا للقدماء في التصرف باللغة والتوسع بالقياس ، وليس للمحدث عنده الا اتباع القدماء تقليدا ، ولا حق له في الاجتهاد ابتداعا (الحق في هذا، أن المحدث أفقر الى الضرورات من القديم ، والحاضر أولى بها من البدوي ، لقوة ألسُن أولئك وضعف ألسُن هؤلاء ، ولكن له ان يأتي بمثل ما أتوا به حسب ، فما قصروه من ممدود ، فله أن يقصره بعينه وما حذفوه فله أن يحذفه، وما حركوه من ساكن أو سكّنوه من متحرك، كان له أتباعهم منه نفسه، ولا يحدث هو من عنده شيئا لم يأتوا به ، فيكون ذلك سريعا فيفساد اللغة وامحاء أثرها) (٧)· ثم جعل حكمه هذا، في اتباع العرب فيما تصرفت به عاما، يستوي في ذلك تصرفها في العربي والاعجمي من الالفاظ ، ولم يجعل للمحدث حق ادخال كلمات أعجمية جديدة على العربية، وانما أراد الوقوف عند تلك الكلمات التي أدخلها القدماء عليها، حرصا على نقائها وحماية لها (وكذلك له أن يتكلم بما تكلموا به من العجمي وخلطوه بكلامهم، وليس له ادخال غيره في العربية ، هكذا هو الاحتياط على اللغة، ومن يريد النطق بها) (٨) ·

ثم لم يجعل للمحدث حق التصرف باللفظة الأعجمية الا على ما تصرفت به العرب ، فعندما حاول ابن جني تبرير تخفيف المتنبي لكلمة (أرّجان) في شعره قياسا على تصرف العرب فيما يماثلها من الاعجمي(٩) ·

رد عليه الوحيد قائلا (هذا يجوز للعرب اذا فعلته، اقتفينا أثرها، فان كانت العرب خففت (أرّجان) فللمتنبي وغيره تخفيفها ، وان لم يكن ذلك فليس للمولدين شيء من ذلك ، لان هذا سريع الى فساد اللغة أصلا، اذا كان كل مُحدّث أراد تغييرها ، لم يحصل الناس منها على شيء ، وتخطئة من فعل ما لم تفعله العرب أسهل من مخالفة العرب وفساد لغتها) (١٠) ·

وقد تطرف الوحيد تطرفا شديدا ، وهو يمنع قياس لغة الشعر على لغة القرآن ، فقد استشهد ابن جني على استعمال المتنبي في شعره لكلمة (يقذف) بآية كريمة، مدللا على فصاحة الكلمة وعربيتها ، فقال الوحيد معلقا (أما (يقذف) ففصيحة عربيـة لا عيب فيها، ولكن قياسه الشعر على القرآن ليس بقياس صحيح وذلك ان القرآن نزل بلغـة قوم فهموه ، وأكثره في زماننا لا يُفهم أو يفسر لاهله ، والشعر في زماننا معمول لاهله، فينبغي أن يكون عـلى ما يفهمونه ، وقد أورد (أي المتنبي) في اللغـة أشياء ، لو أوردها شاعر فيهـا لكان مخطئا ، لا من جهة اللغة ، لكنـه مخطيء ، والكلام واسع لا يحوج أن يستعمل منه هذا) (١١) . وواضح هنا انه لا يعترض على فصاحة الكلمة وعربيتها ، ولكنه يعترض أن يكون ورود الكلمـة بالنص القرآني مسوغا لاستعمالها بالشعر الموجـه لعامـة الناس في عصره، وما قد ينتج عن ذلك من صعوبة فهم الكلمة ، وواضح أنه لا يقصد كلمة بذاتها وانما يشير الى قاعدة في لغة الشعر عامة .

الشـــواهد :

وكما تشدد في مسألة القياس ومنعها ، فقد تشدد كذلك في مسألة قبول الشاهد مـن كلام العرب قبل توثيقه والاطمئنان الى صحتـه ، فلم يجز الاستشهاد بشعر المنحول عليهم من الشعراء، لصعوبة تبين الصحيح من المنحول في هـذا ، وعاب عـلى ابن جني استشهاده ببيت مـن شعر المجنون وقال (أما أهل العلم فيعلمون أن المجنون ، أكثر ما حُملَ عليه من الاشعار منحول ، ومنهم من ينكره أصلا) (١٢) كما رفض الاستشهاد بشعر المحدَثين عامة ، ورأى ان فصاحة بعضهم وعذوبة شعره لا تجعله حجة في كلام العرب ولا تجيز الاستشهاد به ، سيما فيما أكثرت العرب منه وأغنت بكلامها عنه ، وعلى هـذا رد استشهاد ابن جني بشاهد مـن شـعر ديك الجن وقال (أما حَسَنُ الطريقة فنعم ، وحاذق أيضا مـن الحُذّاق ، ولكن لا يكون حجـة في لغـة العرب والالتفات الى الاحتجاج بقوله ضيقُ عطن في هذا العلم) (١٣) . كما رد أيضا استشهاده بشعر

أبي نواس، وبرر ذلك بقوله (أبو نواس فصيح لعمري، الا انه لا يُحتج به في اللغة، سيما في شيء قد اكثرت العرب ذكره ، فلم تدفع الحاجة الى استشهاده) (١٤) . كما لم يجز للعالم المعلم الاستشهاد بما لم يصح عنده وما يشك فيه، وانما له أن يقف من ذلك على ما يراه صحيحا من شواهده ، فقد قال ابن جني : لا يعرف أصحابنا (كنوتُ) بالواو ثم ذكر شاهدا من الشعر عليها :

وانى لأكنو عن قَذورَ بغيرها .

فرد عليه الوحيد قائلا (فاذا كان عندك بهذه الصورة، فايراده فساد للغة ، كنت تورد أنت الصحيح عندك ، وتدع من يريد غيره يأخذه عن غيرك ، لله در الأصمعي فانه لم يروِ من اللغة الا الصافي المهذب) (١٥) . وكذلك أنكر الاعتماد على ما فيه ضعف من الروايات، وما لا يحتمل القبول منها ، فعندما ذكر ابن جني هذا الشاهد على كلمة (يولغان) :

ما مرَّ يوم الا وعندهما لحم رجال أو يولغان دما

وعقب عليه بقوله : ويروى (يلغان) الا انه اذا روي (يلغان) انكسر الوزن ، ولكن بعضهم قد رواه فاتبعناه ، ومع ان ابن جني رحمه الله ذكر الشاهد على وجهه الصحيح، ولم يعتمد الرواية الثانية، وكان تعقيبه ذاك ضربا من السهو والغفلة، الا ان الوحيد اهتبل هذه الفرصة ليذكر رأيه في مسألة توثيق الروايات وصحتها ، وسخر من ابن جني بقوله (لا يُتبَّع مَن روى مكسورا، ولا كرامة لروايته، اذا كنا نرد بعض الاخبار في الدين، لانها لم تحتمل القبول ، فأنت يا شيخ لِم تقبل وتتبع المكسور، لعل روايتك كلها أو اكثرها من هذا العمل) (١٦) ومع اننا نراه متجنيا على ابن جني متحاملا على رواياته في هذه الملاحظة ، الا انها ملاحظة ضرورية نفيسه ، ونحمد له وقوفه عليها وعدم اغفالها .

لغة الشعر بين البدو والحضر :

وكذلك فقد وقف الوحيد طويلا عند لغة الشعر، وأبان الفرق بين لغة البدو والحضر، وكثرت تعليقاته حول لغة الشاعر المتحضر المُحدَث، كالمتنبي وغيره، وأنكر عليه اصطناعه لالفاظ البدو وللشاذ من لغات قبائلهم ، على غير ضرورة ماجئة الى هذا ، وهو رجل مثقف متحضر قرأ اللغات ودرس الاشعار وأمكنه ان يختار من اللغة أحسنها وأجملها ..

ولهذا فعندما ذكر ابن جني ما جاء من لغات العرب في كلمة (الذي) كاللذّ واللذّي بتشديد الذال، مبررا استعمال المتنبي لكلمة (اللذّ) في شعره ، رد عليه الوحيد غاضبا (هذه اللغات من لغات العرب ، كل شاعر منهم نطق بلغته التي لا يعرف غيرها أو استمر لسانه عليها ، وأما الحضري الذي قد قرأ اللغات وعرف الاشعار وتأدب ، فعليه اختيار الاحسن والأعرف ... وبالجملة فليس كل ما نطقت به العرب ينبغي للشاعر الحاذق أن يودعه شعره ، وان كان قد جاء عن العرب فان على ذلك لغتهم وليس بلغة لمُحدَث) (١٧) . وانطلاقا من هذا فقد عاب على المتنبي استعماله لكلمة (ايْما) في شعره :

ايما لابقاء على فضله   ايما لتسليم الى ربه

وقال (كان المتنبي يُغربُ جهده على الناس وليس الاغراب من محاسن الشعر ، وقد كان له أن يقول (إمّا) وهي أحسن وأعذب، وفي أسماع الناس أعرف، فتركها وأخذ (ايْما) ليريهم أنه صاحب لغة) (١٨) .

وعاب عليه أيضا ذكره في شعره لكلمة (تُوس) بمعنى الاصل ، ورأى أن لا عذر له في هذا ، وأن مرادفات الكلمة تغني الشاعر عن استعمالها (ليس قوله (تُوس طيء) وان كان كلاما عربيا، بلفظ عذب ولا مليح ، ولو لم يكن في معناه غيرها لكان معذورا ، فكيف يُعذر ولها نظائر وأخوات أحسن منها ، وهذا فعل حاطب ليل ، مهما وقع في يده أوعاه) (١٩) .

الموافقة لمقتضى الحـال :

وقال بموافقة الكلام لمقتضى الحال، والكلمة على فصاحتها وعذوبتها ربما لاءمت البدو ونبت عن الحاضرة ، اذا اختلف مقام قولها وتفاوتت اقدار سامعيها، ومن ذلك ان ابن جني امتدح كلمة (فتى الفتيان) التي ذكرها المتنبي في مديح سيف الدولة عندما رثى اخته(٢٠) ، وقال انهـا مـن أعذب لفظ وأحسنه ، واستشهد على هـذا بورودها في شـعر ليلى الاخيلية صفـة لصاحبها توبـة(٢١) ، فعلق الوحيد على هـذا بقولـه (هو من أعذب لفظ لمثل توبة بن الحُمَيِّر رجل سوقة بدوي ، فأما ملك عظيم فهو تقصير في مدحه وظلم له، وليس كل المدح يصلح للملوك) (٢٢) .

الفصاحة طبعا وتطبعا :

أما الفصاحة سليقة وطبعا فقد جعلها مقصورة على القدماء من أقحاح البـدو واستكثرها عـلى المحدثين وأهل الحاضرة، ورآهـا مكتسبة تعلما ومرانا ، ولهذا فقد أنكر على ابن جني تصديقه للمتنبي عندما سأله عـن كلمة (مرجاه) في قولـه (ومرجاه أن يصيد الهلالا) (٢٣) فأجابه انه قالها (بالطبع) ثم وجدها في شعر الأعشى ، فقال الوحيد موبخا ابن جني (كيف قنعت منه بهذا الجواب؟ بعد علمك انه حضري يأخذ اللغة من الكتب، لم يولد بنجد ولـم ينشأ بالغور ، أفتقلده ولا تعمل عـلى يقينك الـذي تيقنتـه ؟ ليت انك لم تحك هذه الحكاية) (٢٤) .

كلام المتصوفة وغيرهم :

كما أنكر عـلى المتنبي في أكثر مـن تعليق ذكره لكلام المتصوفة في شـعره ، ورأى ان ذلك مفسدة للشـعر وتهجين له ، ودليل عـلى عجز الشـاعر وضعف لغتـه ، وخروج بشعره عما ألفت العرب مـن أساليبها والفاظها (ان الشعر لا يحسن فيه كلام المتصوفة وكلام الطب والفلاسفة ولا كلام المتكلمين ولا الفقهاء ، فان لكل طبقة من هـذه عبارة ، والشعر لا يحسن الا في الاساليب التي أتت بها العرب وبالفاظها ، وبحسبك أن

ذكر الدين والقصص يضعف الشعر ، وانما تتّبع فيه العرب ، وليس كل ما تعلمه الانسان من الكلام يحشو به شعره، أرأيت لو تعلم الانسان كلام الزنج والترك حتى تمهر فيه ، أكان يحسن أن يحشو به الشعر ؟) (٢٥) ٠

تصويبات لغوية :

ولعل مما يدلل على سعة علم الرجل بالعربية وكثرة محفوظه منها، تلك التعليقات الكثيرة التي غلّط فيها ابن جني ونفرا من كبار العلماء في مسائل من اللغة ، وسنذكر لك أمثلة من هذا على سبيل الاستشهاد وليس على سبيل الاستقصاء ، فمن ذلك ان ابن جني ذكر بيت المتنبي :

غَلِتَ الذي حسبَ العشورَ بآية
ترتيلَكَ السورات من آياتها

وقال بعده : (غَلِتَ) في الحساب و (غلطَ) في الكلام ٠ فرد عليه الوحيد مصححا (الغلتُ والغلطُ واحد) ، وهما لغتان أبدل قوم التاء طاء لقرب مخرجهما ، قال رؤبة :

اذا استدار البرمُ الغلوتُ

فجاء بالغلوت في القول لا في الحساب ، والمتنبي كان يحب الاغراب ليعلم الناس انه لغوي ولزوم المشهور ، اذا كان حسنا أفضل في النظم والنثر) (٢٦) ٠

ومن ذلك أيضا تفريقه الدقيق للاستعمال اللغوي لكلمتي غمد وأغمد ، فقد ذكر ابن جني ان (غمدت السيف وأغمدته ، لغتان فصيحتان ذكرهما أبو عبيدة ، وأنكر أبو حاتم غمدت) (٢٧) ٠ فرد عليه الوحيد مصححا (قد قيل غمدتُ السيف ، رددته في غمده ، وأغمدته : جعلتُ له غمدا) (٢٨) ٠ وقد كان ابن جني استشهد بالآية الكريمة (على أن تاجرني ثماني حجج) في شرحه لقول المتنبي :

فآجرك الاله على عليل بعثت الى المسيح به طبيبا

فعقب الوحيد على ذلك ساخرا (استشهاده على آجره الله، جهل طريف وخطأ غريب لايقع فيه من لهأدنى علم، وانما معنى (تأجرني ثماني حجج) يخدمه أجيرا الى الثماني حجج) (٢٩) .

ومن غريب ما ذكره ابن جني قوله ان المبرد أنكر (حوائج) وقال: ليس من كلام العرب على كثرته على ألسنة المولدين ولا قياس له ، وان الاصمعي أنكر هذه الكلمة وقال : منذ خرجت عن الخندق الى أن عدت اليه لم أسمع في كلمة حاجة ، حوائج(٣٠) .

وكان رد الوحيد في تخطئة هؤلاء الائمة الاعلام قاطعا راجحا بقوله (فكيف يصنع بقول هميان بن قحافة العوامي، وهو من فصحاء العرب :

حتى اذا ما قضت الحوائجا

واذا حصل السماع عن عربي فصيح، لم يلتفت الى القياس) (٣١) . ولعل مما يشهد لصاحبنا هذا بطول الباع في اللغة وصواب ما ذهب اليه في تصحيحه هذا، كثرة الشواهد التي ذكرها ابن منظور في لسان العرب لهذه الكلمة ، وهي من شعر فحول الشعراء الفصحاء كالأعشى والشماخ والفرزدق ، مروية عن أكابر العلماء العدول كابن الاعرابي وابن خالويه وأبي زيد وأبي عمرو بن العلاء(٣٢) . وغريب أن تغيب عن الاصمعي، الراوية العظيم لشعر العرب، وعن رجل في جلالة المبرد وغزارة علمه وسعة حفظه .

الخاتمـــة :

وبعد ، فهذا رجل أديب شاعر من أهل القرن الهجري الرابع، آتاه الله جملة من الفضائل : عصبية للعرب وحظا وافرا من العلم بهذه اللغة الكريمة، وحسا أدبيا نقديا دقيقا ، ينظر في لغة قومه بعين المحب لها الغيور عليها ، وبحس الشاعر الاديب المثقف المتحضر ، ولم يجد في

نفسه حرجا من اتهام رجل كابن جني بالعداء للعربية وأهلها ، على ما قدمه الرجل من خدمة جلى لهذه اللغة ، لانه رآه وبعض علماء عصره (العصر البويهي) يتساهلون في أمر هذه العربية، ويبيحون لانفسهم ولمعاصريهم حق التصرف بها، قياسا على القدماء وعلى الشاذ النادر من كلامهم ، ثم يتخذون من شعر المولدين حجة وشاهدا ويتسامحون في الالفاظ الاعجمية ، غفلة أو تعمدا ، كما رأى ان بعض المبدعين من الشعراء ، وممن تسير أشعارهم على ألسنة الناس، يسيئون للعربية ، باستعمالهم الغريب من ألفاظها ، ويعرضون عن اللباب المصفى الذي ينبغي اظهاره واشاعته ، ولهذا وذاك، جاءت هذه الملاحظات اللغوية القيمة التي علق بها على الشرح الكبير (الفسر) لأبي الفتح ابن جني على ديوان المتنبي ، وقد أردتُ التنويه بصاحبها والاشارة الى فضله من خلال ذكرها ودراستها .. أما دراسة آرائه النقدية في شعر المتنبي، فلها بحث قادم ان شاء الله .

ولا شك في أن الرجل كان مصيبا موفقا في كثير من ملاحظاته هذه، اذ لا جدال في أن استعمال مهجور الكلام ونادر غريبه يخل بوظيفة اللغة الاساسية في الافهام، ويترك السامع حائرا في فهم المعنى المراد ، وان من يلجأ الى هذا انما يقصد الحذلقة واظهار بضاعته من العلم باللغة ، على غير ضرورة اليه ، وقد وفرت له العربية مئات من الكلمات السهلة المأنوسة ، ولا جرمَ أن ذلك الغريب يكثر بالتقادم ، عصرا بعد عصر ، ولكل جيل غريبه ونادره ، وهو ما هجر الناس استعماله طويلا، خلال حركة الغربلة الطبيعية التي تقوم بها اللغة في كل قرن تقريبا ، فما كان سهلا معروفا في جيل، قد يصبح مهجورا متروكا في الاجيال اللاحقة به ، واللغة كائن حي تجدد شبابها وزينتها باستمرار ، وتعوض عن كلماتها الميتة المهجورة بكلمات حية جديدة ، وتمنح كل جيل من أبنائها ما يلبي حاجاته منها، ثم لا يجد بعد ذلك عنتا ولا ضيقا فيما يريد التعبير عنه والكلام فيه .

وصحيح أن عصبية الرجل للغته القومية، دفعته الى ضروب من التشدد في أمر حمايتها وصيانتها ، سيما وقد رأى الخطر محدقا بها في عصره ، عصر السيطرة الاعجمية ، وهو مما يحمد له ويعد في محاسنه ، وصحيح أن السماع عن فصحاء العرب ملزم ولا قياس معه ، ولكن الصحيح أيضا أن منع القياس مطلقا وتحويله الى اتباع صارم وحرفي مقلد، فيه تضييق على الناس فيما وسع الله عليهم من أمر لغتهم هذه ، وهو ليس ترفا ولا لهوا وانما هو وسيلة تضطرهم اليها ضرورة قاهرة، لابتكار كلمات تفي بمتطلبات حياتهم الجديدة، اذا لم يجدوا في قديمهم ما يسعفهم في هذا ويعينهم عليه، وهو ضرب من التكاثر الاصطناعي ، لا بأس منه ولا ضرر فيه ، طالما كان محكوما بقواعد اللغة مشترطا لفصاحتها وسلامتها ، ثم لا يؤذن به الا لضرورة قاهرة ، ولا يسمح بالتوسع فيه على اطلاقه ، ولا يقبل الا ممن كان عالما بالعربية عارفا بأسرارها .

ولعمري ان تخطئة الاديب فيما جوّز لنفسه استعماله شذوذا وقياسا، واجب قومي وعمل يدخل في مكارم ما تواصت به هذه الامة من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفي ذلك ما فيه من زجر للناس عن العبث بالعربية والتصرف بها على أهوائهم ونزواتهم ، والعربية عندنا أعز من هذا الاديب أو ذاك، وليس من عمل العلماء أن يبرروا الغلط ويلتمسوا له الشواهد ويتكلفوا له الاعذار ، ولعل قانون حماية اللغة العربية الذي صدر بالعراق، وما ترتب عليه من هيئات عاملة لخدمة العربية ومن عقوبات رادعة للعابثين بها، يدخل في هذا الباب وينهض بذلك الواجب .

أما هذا الدخيل الاعجمي، فهو شر لابد منه وقلما تنجو منه لغة من لغات الارض ، وذلك ان اللغة كأهلها ، تأخذ وتعطي وتؤثر وتتأثر سيما اذا كانت لغة عريقة كالعربية، لم تكن وقفا على أهلها، وفي حدود

رقعتهم الجغرافية المعروفة، وانما وصلت معهم حيث وصلوا من مشارق الارض ومغاربها، وخرجت عن كونها لغة قومية لجنس من الناس الى لغة عالمية لدين سماوي ولسان لكثير من الاقوام الاعجمية التي شرفها الله بالاسلام . ودولة عظيمة كهذه يتالف مواطنوها من امم شتى يختلطون اختلاطا كاملا جوارا ومصاهرة ومعايشة ، يكون من الصعب جدا أن تبقى لغتها نقية صافية من شوائب العجمة ، وصحيح أن الغلبة كانت للعربية في هذا، وانها قهرت اللغات الاخرى وأذابتها ، الا ان توقع تسلل بعض الكلمات الاعجمية من هذه اللغة أو تلك الى العربية في القرن بعد القرن والجيل بعد الجيل، أمر حتمي لا مناص منه سيما في بعض ما أخذه العرب من غيرهم من أدوات الحضارة المادية وآلاتها في السكن والمأكل والمشرب والملبس وغيرها مما يتصل بامور حياتهم اليومية المتحضرة الجديدة .

وطالما ان تلك الكلمات قد نُصّ على أصلها الاعجمي وأخضعت لقواعد العربية وحسها وعوملت معاملة الكلمة العربية في تصريفها واعرابها، ونقلها اللسان العربي من العجمة الى التعريب ، وهي منزلة وسط بين العجمة الخالصة والعربية الخالصة، فلا مانع ، بعد كل هذه الاحتياطات من قبولها ضرورة واضطرارا على أضيق نطاق ممكن ، باعتبارها حالة مرضية شاذة ، ثم لا يسمح بالتوسع في هذا حتى تبدو كأنها مسألة طبيعية لا غبار عليها .

واذا كان الرجل من العرب اليوم يعيش كالفرنجة ، في هيئته وملبسه وما يرتفق من أدوات في بيته وعمله ومأكله ومشربه ، وكلها أعجمي الصنع والمنشأ، ثم لا يتحرج من ذلك كله ولا يراه دليلا على ضعف أو تأخر، ثم يرتضخ في كلامه عامية سوقية ورطانة أجنبية ، ثم لا يذكر عروبته ولغتها القومية، الا أن يتحرج من ذكر كلمة (التلفزيون) ويشدد النكير على الناس اذا لم يقولوا (مرناة) مثلا ، فذلك أمر أقرب

الى العبث والمزاح والهزل، في أمر عظيم لا يحتمل مثل هذا أو شيئا منه ، وانما اللغة الناس تستمد قوتها من قوتهم وتضعف بضعفهم، ومتى صفت حياتهم في مجموعها ، علما وسلوكا وتفكيرا ومعايشة من شوائب العجمة، صفت لغتهم وازدادت نقاء ، ونفضت عنها أدران ما لحق بها من عجمة وهجنة، وانما هي كالثوب تستمد نظافتها أو قذارتها من نظافة لابسها أو قذارته .

ولو ترك الله هذه اللغة لجهود أهلها وحدهم، على ما هم فيه من ضعف وتخلف وهوان ، وعلى ما تكالبت عليهم أمم الارض ورعاع الناس، لذهبت وماتت كما مات غيرها من اللغات القديمة .. ولكن الله بمنه وكرمه ، تدارك هذه الامة برحمته وأنزل بلغتها قرآنا عربيا غير ذي عوج ، فحفظها به وحفظهم بها ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، وله الحمد مبتدءا وختاما .

الحواشــــي :

(١) بغية الوعاة ٢٥٣ . للسيوطي، دار المعرفة ـ بيروت .
(٢) الفسر لابن جني ١٣٦٦ مصورة عن مخطوطة قونية .
(٣) الفسر ١/٢٠٥ ، تحقيق الدكتور صفاء خلوصي، بغداد ١٩٧٠ .
(٤) الفســـر ١/٢٠٥ .
(٥) الفسر ٢/١٤٣، تحقيق الدكتور صفاء خلوصي، بغداد ١٩٧٧ .
(٦) الفســـر ١/٣٦٤ .
(٧) الفســـر (المخطوطة) ٧٨٣ .
(٨) المخطوطـــة ٧٨٣ .
(٩) المخطوطـــة ٤٣٠_٤٣١ ، قال ابن جنـــي : ولكـــن العرب اذا نطقت بالكلمة الاعجمية، اجترأت عليها فغيرت كثيرا من ألفاظها وبنائها ، وانما جاز ذلك لانه ليس من كلامها، فتناكروه، فغيروه، ليقرب مـــن حروفهم وأبنيتهم ، فاذا جاز ذلك في غيره مما يطول تعداده، فكذلك يجوز له أيضا أن يقول (أرجان) مخفف وأصله التثقيل .
(١٠) المخطوطـــة ٤٣٠_٤٣١ .
(١١) الفسر ١/٢٩٠ . وبيت المتنبي :

كالبحر يقذف للقريب جواهرا   جودا ويبعث للبعيد سحائبا

(١٢) المخطوطـــة ١٣٦٦ .
(١٣) الفســـر ١/٣٠٢ .
(١٤) المخطوطـــة ٣٤٣ .
(١٥) الفســـر ١/٢٠٧ .
(١٦) المخطوطـــة ٥٠٧ .
(١٧) الفســـر ١/١٠٧ .
(١٨) الفســـر ٢/١٠٥ .
(١٩) الفسر ٢/١٠٩ ، وبيت المتنبـــي :

لقد كنت أنفي الغدر عن توس طيىء   فلا تعذلاني رب صدق مكذب

(٢٠) بيت المتنبـــي :

أرى العراق طويل الليل مذ نعيت   فكيف ليل فتى الفتيان في حلب

(٢١) بيت ليلى الأخيليـــة :

كأن فتى الفتيان توبة لم ينخ   قلائص يفحصن الحصى والكراكرا

(٢٢) الفسر ٢١٢/١ .
(٢٣) وبيت المتنبي كاملا :

ما لمن ينصب الحبائل في الارض
ومرجاه أن يصيد الهلالا

(٢٤) المخطوطة ٩٤٦ .
(٢٥) انفسر ٣٠٢/٢ .
(٢٦) الفسر ١٤٢/٢ .
(٢٧) الفسر ٢٣١/٢ .
(٢٨) الفسر ٢٣١/٢ .
(٢٩) الفسر ٣٢٧/١ ـ ٣٢٨ .
(٣٠) الفسر ٧٤/٢ ، وقال المحقق في حاشيته حول كلمة الخندق (خندق سابور في برية الكوفة، يشق طف البادية الى كاظمة مما يلي البصرة ... وأكبر الظن ان هذا الاخير هو الذي يقصده الاصمعي) .
(٣١) الفسر ٧٥/٢ .
(٣٢) لسان العرب (مادة: حوج) لابن منظور، بيروت ١٩٥٥ .